كلمات

شعبنا يريد الحياة

عندما توخّى البشر أن يعرفوا هل الحرب عادلة، سألوا الله أو الكتب المقدّسة واستفتوا الملوك والنبلاء والكهنة. وقلّما اعتبروا آراء العسكر أو المواطن العادي وركّز المؤرخون كهوميروس وفيرجيل وشكسبير على أنشطة الأباطرة والجنرالات وكبار الأبطال. وجعلوا النحر والمجد يحجب الظلم والمآسي.

كلٌ ينظر الى الحروب من وجهة نظره هو. والحرب ليست ما نراه في الأفلام السينمائية، أو في الرسوم والأغاني الشعبية.

الحرب جحيم تحت كل سماء، ولا ينبثق معنى الحرب من التحركات التكتيكية أو الابتهالات الإلهية. التقنيات والإلهيات ليست أساسية في سرد تاريخ الحروب. علينا أن نبحث عنه بالأحرى في أعين الجنود وإحباط الأهالي وتمزّق الأجسام البشرية.

الحرب جهنّم على الأرض، ولكنها تتجلّى أحياناً دفاعاً عن النفس. فهل من مسوّغ لحروبنا المختلفة والمتضاربة الأبعاد والأهداف؟

بلدنا أردناه رسالة ومختبر حضارات، وإذا بمحنة تقسو وتدخلنا في اللامعقول وبتنا نرجو أن يصبح الموت ولو بعد حين المجال الوحيد للقائنا.

شعبنا يريد الحياة في بساطتها، وتأتي السياسات في ما بعد. يرجو عيشاً طيباً كريماً. يرجو حرية وسلاماً هما مدخل إلى وجود حقيقي لا يكتفي بالمسعى المادي والبيولوجي.

إن حرباً باسم الدين لا يرضاها الدين. والحرب باسم المصلحة الشخصية تهيّئ للرد عليها إذا تبدّلت الظروف، والحرب في النفوس يستحيل نسيانها. فلنهذّب أنفسنا أولاً والتهذيب للنفس موصول. الشعوب التي لم تتروّض على العقل المروّض تروضاً مضنياً تعيش في قفزات لا منهجية فيها. السلوك مراس ومعركة صاحبه في خارج كيانه تنبثق من كيانه. نحن، كباراً وصغاراً، نحيا خارج أنفسنا، في الطرقات، وقلّما ندرك أن الكلمات لها مدلولها وأن رؤية الحقيقة تتجسّد في الكلمات أو نكون أهل لغو. نتلاعب في «أفضل الأحوال» بالكلام ولا علاقة للكلام بالوجود الحق. اللبناني العيّان كلام، حكواتي يستلذّ حنجرته. انه ظاهرة صوتية. الكلام قناع قبل قناع الأوبئة لأننا نخشى أن يصبح لوجه الى الوجه وأن يُفتضح وضعنا النفسي. ينبغي إذا أن ننعتق من عبودية الأنا والمادة الجوفاء، والمظاهر الرعناء. وزحمة السير القائمة حتى الساعة اسطع دليل على ذلك. من هو ذاك المسؤول – البطل الذي يعمل لثورة داخلية حقه هي أساس كل الأسس؟

أين وزراء الثقافة والتربية والإعلام يا ترى؟ أمامهم مسؤوليات جسام لو يدرون!

د. جهاد نعمان
استاذ في المعهد العالي للدكتوراه